

## الموت انهياراً اقتصادياً

حين يتعرض أى مجتمع لحالات القهر فإن الموت يسكن كل مفرداته خصوصاً على المستوى الاقتصادى باعتباره عصب الحياة، وتخلو الحياة من مضمونها فى ظل الفقر والجوع والأحوال المعيشية المتردية، والشعر فى كل زمان ومكان وثيقة إنسانية تكشف عرى المجتمعات ومواضع التردى والانهيار، والشعراء هم أكثر الناس تطلعاً إلى عالم أكثر إشراقاً يتجاوز الواقع المعيش. وأوطان شعرائنا الثلاثة مرت بمنعطفات اقتصادية خطيرة، فاتسم واقعهم الاقتصادى بالانهيار، فالسياب وأمل دنقل قد تعرضا لحالات الجوع والفقر، ومرّ كل منهما بضائقات مالية طاحنة أفقدتهما الشعور الطبيعى بسعادة الحياة، أما محمود درويش فقد عانى - ولا يزال - من التآمر بكل أنواعه: النفى والنشر والقهر والسلب والضياع. يأتي السياب فى مقدمة شعرائنا من حيث تجسيد البعد الاقتصادى فى شعره، أو كشف ملامح الفقر والجوع المضروب على عراقه، فالعقم والموت يسكن كل شىء حتى الشوارع والمزارع يعيش فيها:

أهذا انتظار الستين الطويلة

الموت فى الشوارع

العقم فى المزارع.

يرفض السياب الواقع المتحقق، فلا يراه مناسباً بعد الانتظار الطويل، لذا يستخدم بنية الاستفهام التي توحى بالحيرة والتردد والشك بل تسير إلى النقي خصوصاً أنه يجسد معطيات هذا الواقع التدميري الذي يشكل أفقه الانهيار الاقتصادي، ولذا «عادت الغلبة للموت على الحياة؛ لغياب الشاعر عن حضوره، وهكذا تهدم التوازن بين النقائض: الحياة والموت، الحضور والغياب، الحب والنضرة، سخاء البذل وأحجام البخل النسبي والطلق. وكان تهدم التوازن هذا بداية الانهيار الجديد والأكثر خطورة في حياة السياب الذي عانى فيه ببطء من ذلك الموت المعنوي الطويل.. والذي مهد لموته الجسدي ورافقه حتى النزع الأخير»<sup>(٧١)</sup>.

ويعد ديوان «أنشودة المطر» وثيقة تكشف الانهيار الاقتصادي والتردي وواقع العراق العظيم والموت الذي ينشر ظلاله على الحقول فلا تثمر إلا جوعاً وعرياً وضياًعاً، وإن المدنية ليست إلا موتاً يمارس سطوته على أفق الحياة وتبقى جيكور قريته بين الوجود والعدم في ظل التردي والانهيار الذي يمتد على أفق العراق:

وتلتف حولي دروب المدينة:

حبالاً من الطين يمضغن قلبي

ويعطيني، عن جمرة فيه، طينة،

حبالاً من النار يجلدن بمرض الحقول المزينة

ويحرقن جيكور في قاع روحى

ويزرع فيها رماد الضغينة.

وقد شكلت معطيات الواقع الاقتصادي رؤى السياب، فلم ير إلا موتاً يحيط بكل شيء منذ طفولته، فقد كانت بيئة الطفل يحفها الموت من كل جانب، فهل كانت حياة الجنوب العراقى آنذاك إلا موتاً كثيباً تنطق به مظاهر البؤس والمرض والشقاء وتدور فيه هياكل البشر المتعبين حول رحى الإقطاع البغيض تمتص قواهم وتحيلهم أشباحاً تنخر فيها الجهالة والجوع والمرض<sup>(٧٢)</sup>.

اتعلمن أى حزن يبعث المطر؟

كيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياء،

كالحب، كالأطفال، كالموتى - هو المطر<sup>(٧٣)</sup>.

ويسحق الفقر والجوع الحياة فى العراق، وينتشر الضياء، وتتكاثر رؤى الإحباط لدى السياب فى ظل التدهور الاقتصادى، ويصبح انتظار المطر انتظاراً سلبياً لا يحقق فاعلية تسهم فى إعادة الحياة، بل إن العراق وقع فريسة للجذب فامتأ الشاعر حزناً لهذا الواقع المعتم:

مطر...

مطر...

مطر...

وفى العراق جوع

وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغريان والجراد  
وتطحن الشوآن والحجر  
رحى تدور فى الحقول... حولها بشر  
مطر...  
مطر...  
مطر...  
وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع  
ثم اعتلنا - خوف أن نلام - بالمطر...  
مطر...  
مطر...  
ومنذ أن كنا صفاراً، كانت السماء  
تغيم فى الشتاء  
ويهطل المطر/  
وكل عام - حين يعشب - نجوع  
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع<sup>(٧٤)</sup>.

تتفاقم الأزمة الاقتصادية، وتقوم البنى الدالة بفضح الواقع  
العراقي، فالجوع يسيطر على الزمن (كل عام)، وتأتى الثائية  
المضادة لتأكد الموات والانهيار (حين يعشب الثرى - نجوع).  
«ولا ينسى الشاعر أن يحشد فى قصائده كل المبررات التى  
تدفع الفرد المأزوم تحت سياط الجوع والحرمان إلى أن يواجه  
العالم أجمع بالحق والسخط الذى يستدعى شعوراً حاداً بفرديّة  
المأساة رغم وضوح أسبابها الاجتماعية»<sup>(٧٥)</sup>.

وتتجلى هذه النبيرة الساخطة فى قصيدة «المخبر» حيث الذات ترفض الآخر، وتتوقع، تحس بالانهيار الذى يلاحق كل شىء، فلا شىء إلا قانونها الخاص، ورؤيتها للعالم تتجسد من خلال الفقد والإحساس بالضيق والفقر:

سحقاً لهذا الكون أجمع وليحل به الدمار  
مالى وما للناس؟ نست أباً لكل الجائعين  
وأريد أن أروى وأشبع من طوى كالأخريين<sup>(٧٦)</sup>.

أما الوهم والحلم الذى لا يتحقق فإن السياب لا ينشغل به، لأنه لا يستطيع أن يعبر مأساة الواقع، وبين الفقر والجوع ويملاً بطون الجوعى، وتبقى ذات السياب قلقة متوترة، لا تتسجم مع الآخر الذى يستسلم للانتظار السلبي:

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث فى الفلاة  
روح النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحين  
فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من جوع<sup>(٧٧)</sup>.

ولهذا تتخذ الذات قرارها فى ظل التردى والانهيار والموت الذى يخيم على الواقع، فيصبح الواقع أشبه بالموت، بل إن الموت لدى السياب أهون وأيسر، فهى تعيش فى ظل المصير السيئ:

إنى ساحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع  
لا شىء غير الرعب والقلق الممض على المصير

رياه إن الموت أهون من ترقبه المرير<sup>(٧٨)</sup>.

لقد عاش السياب مرحلة مأزومة اتجه فيها إلى اليرجوازية الصغيرة «في مرحلة تاريخية عصيبة تنتمى فيها للتغيير وتخشى من ممارسته وتنوء بأثقال واقع مزر متفسخ وامتدادات أجيال من الظلم والقهر والظنيان التي رسخت في العقول عقداً وشكوى وآلاماً وانغلاقاً مريضاً ويطغى فيها الإحساس بأن مأساة الإنسان في أساسها فردية، وإنه رغم اندماجه المطلق الأعمى بالجماعة في شعائرها وقيمها وطقوسها يستشعر في قلب ذلك الاندماج أنه إن جاع أو مرض أو نكب فإنه هو وحده الذي يستعمل هذه المأساة ولا أحد سيدفعها عنه»<sup>(٧٩)</sup>.

ويمتد أفق الموت في شعر محمود درويش، وتتلور ملامحه بوصفه انهياراً اقتصادياً لا سيما أن وطناً مسلوباً وأرضاً مفتعبة لا بد أن تثمر عمقاً وانهياراً وموتاً، لأن الموت يمارس بكل ألوانه. هذه الرؤى المتداخلة بين رحيل الوطن وغيابه وبين الانهيارات خصوصاً الاقتصادية تتراءى في قصيدة: «نسير إلى بلد»، حيث يقدم محمود درويش معطيات انهيارية في هذه القصيدة القصيرة، التي نضطر إلى كتابتها كاملة حتى تتضح ملامح الانهيار والموت:

نسير إلى بلد ليس من لحمنا. ليس من عظمنا شجر الكستنا  
وليست حجارته ماعزاً في نشيد الجبال. وليست عيون  
الحصى سوسنا

نسير إلى بلد لا يعلق شمساً خصوصية فوقنا

تصفق من أجلنا سيدات الأساطير: بحر علينا ويحر لنا  
إذا انقطع القمح والماء عنكم، كلوا حبنا واشربوا دمعنا  
مناديل سوداء للشعراء. وصف تماثيل من مرمر سوف ترفع  
أصواتنا

وجرف ليحمى أرواحنا من غبار الزمان وورد علينا، وورد لنا  
لكم مجدكم ولنا مجدنا. آه من بلد لا نرى منه إلا الذى لا  
يرى: سرُّنا  
لنا المجد: عرش على أرجل قطعها الدروب التى أوصلتنا إلى  
كل بيت  
سوى بيتنا!

على الروح أن تجد الروح فى روحها أو تموت هنا... (٨٠).

يلحظ القارئ أن عنوان القصيدة - من خلال بنيته - يفتح أفقاً  
من الدلالات واحتمالات التأويل، فالشاعر لجأ إلى التكرير لكلمة  
(بلد) فى عنوانه (نسير إلى بلد) ليقدم معطيات الموت التى تحيط  
بهذا البلد المنكوب الذى يعانى من الضياع وفقدان الهوية لدرجة  
أنه أصبح نكرة على مستوى بنيته ووجوده - ولا يستطيع أن يتمتع  
بخصوصية، يمنح أبناء الأمن والاستقرار، لكنه مسكون بالموت:  
الانهيار الاقتصادى والفقر والجوع والحزن والانكسار: (إذا انقطع  
القمح عنكم كلوا حبنا واشربوا دمعنا).

وفى ظل حركة الشاعر الدائبة والبحث عن معطيات تمنحه  
الحياة، يصل إلى موت جديد وغريبة دائمة يمارسها كل يوم: (عرش  
على أرجل قطعها الدروب التى أوصلتنا إلى كل بيت سوى بيتنا!).

ولعل علامة التعجب التي وضعها الشاعر نهاية السطر السابق تشير إلى الألم والدهشة والحسرة والتعجب من واقع يحافظ على الفقد والضياع.

ويتجلى الموت في خطاب أمل دنقل بوصفه انهياراً اقتصادياً، فيمارس سطوته على مفردات الواقع، فيبدو جافاً ذابلاً وعقيماً، والحياة الاقتصادية مرتبطة بالحياة السياسية، فهي نتيجة لها، فكلما اتسم الواقع السياسي بالفاعلية والعدالة والحق اتسم الواقع الاقتصادي بالرخاء والخير والحياة الكريمة بعيداً عن المذلة والهوان، وعندما يسود القهر والظلم والقسوة لا يثمر الواقع إلا موتاً وعطناً. يتراءى الموت/الانهيار الاقتصادي في قصيدته «كلمات سبارتكوس الأخيرة» حين يصرح أمل دنقل:

فريما يأتي الربيع

«والعام عام جوع»

فلن تشم في الضروع.. نكهة الثمر!

وربما يمر في بلادنا الصيف الخطر

فتقطع الصحراء.. باحثاً عن الظلال

فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير

والرمال

والظماً الناري في الضلوع!

يا سيد الشواهد البيضاء في الدجى..

يا قيصر الصقيع! (٨١).

زمن الانهيار يتبدى فى مطلع الدفقة حيث يعلن الشاعر شكه فى قدوم موسم الولادة/الربيع، مستخدماً أداة شك فى قدومه (قريباً يأتى)، ثم يستخدم تقنية الاستدعاء عن طريق النص لعالم بدر شاكر السياب (والعام عام جوع؟) ليمزج مكانين يعانين من الفقر والجوع والموت: العراق ومصر، فكما عانى العراق - فى فترة الستينيات - من وبيلات الجوع والتشرد والضياع فى ربوعه حين انتشرت فيه المجاعة والانهيار الاقتصادى عانت مصر من الظروف نفسها: الفقر والجوع إنه الموت يفرس نابه فى بطون الجوعى، فى ظل القهر السياسى الذى يعانىه الوطن فى رحاب الطاغية/قيصر. وتأتى تراكيب الانهيار الاقتصادى دالة فى موضعها حيث يسود السلب عالم الواقع الذى يمتد إلى المستقبل: (قلن نشم فى الفروع.. نكهة الثمر)، ثم تأتى تقنية التكرار لتؤكد موضع الموت/الجذب والفقر الذى يغطى أفق الواقع المتردى: (فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير والرمال) حتى الماء يعانى الشعب من فقده، وهو أهم عناصر الحياة، ولكن الشاعر أضاف إلى الماء المفقود الظماً صفة (النارى) ليشير إلى حرقة الظماً والمعاناة التى تفتك بالأحياء الموتى.

وفى قصيدة «العشاء الأخير» يجتاح الموت واقع الشاعر، ويمارس سطوته وقهره حتى إن الذات الطامحة تقع فريسة بين ضدين: رغبة الصعود والخوف من السقوط، حيث يتنازعها هذان النقيضان، فى الوقت الذى فقد فيه (القدرة على الحياة) وانتشرت كل عوامل الانهيار، فأصبح يعانى من ألم الجوع، فلم يعد لديه ما يعينه على الحياة وينقذه من هلاك الموت المحقق:

أعطني القدرة حتى أبتسم  
فشعاع الشمس يهوى كخيوط العنكبوت والقناديل تموت  
قدمي تلتمس السلمة الأولى لكي أصدف فوقاً  
ويدي تلتمس الحاجز إذ أخشى السقوط  
كيف أبقى؟  
عفن الموتى، وأطياب الحنوط  
تكهة تكسو فناء البيوت، تسرى في دمي  
عرقاً مغرقاً<sup>(٨٢)</sup>.

ثم يحول الانهيار العام إلى انهيار الذات التي تعاني من الفقد  
والجذب والموت، وهي تحاول في الوقت نفسه أن تحدد رؤيتها  
للعالم من منظور فقدها ولهذا تطرح تساؤلاً يحدد سياق علاقتها  
بالعالم، فهي لا ترغب في الانفصال، بل تتأمل في صيغة جديدة  
تحقق لها الاتصال والامتزاج:

جائع يا قلبي المعروض في سوق الرياء  
جائع.. حتى العياء  
ما الذي آكله إذن..  
كي لا أموت؟<sup>(٨٣)</sup>.

البناء النحوي دال، حيث يسيطر الشاعر على القارئ حين  
يجعله في منطقة التركيز فبدأ المقطع بـ «جائع» مع حذف المسند  
إليه (أنت) لينصب اهتمامه على الفقد والانهيار السائد لا الجوع،

ثم لجأ إلى تقنية التكرار للمفردة نفسها (جائع) حتى يشف مرارة الحرمان والمعاناة في ظل الواقع المتردى.

ويتماهى الانهيار السياسى مع الانهيار الاقتصادى فى قصيدة (الأرض والجرح الذى لا يفتح) فيقدم أمل رثائية للواقع خصوصاً وأن حال الأمة على المستوى السياسى والاقتصادى يرثى له، فكل مفردة من مفردات الواقع تؤكد الموت الذى يزحف على كل شيء، فالقصيدة رؤية للواقع العربى تفيض باليأس والقناتمة. وإن كانت «الأرض الخراب» (أليوت رثاء للحضارة الأوربية ووصفاً للجذب الروحى والتدهور الأخلاقى فإن قصيدة: «الأرض والجرح الذى لا يفتح» هى مرثية لحال الأمة العربية والحياة العربية ليصور هذه العوامل ويتبأ بنتائجها وتداعياتها الطبيعية»<sup>(٨٤)</sup>.  
يكشف أمل هذا الواقع المتردى حين يصرح:

الأرض ما زالت بأذنيها دم من قرطها المنزوع،  
قهقهة اللصوص تسوق هودجها.. وتركها بلا زاد  
تشد أصابع العطش المميت على الرمال،  
تضيق صرختها بحممة الخيول.  
- الأرض ملقاة على الصحراء ظامنة،  
وتلقى الدلو مرات.. وتخرجه بلا ماء!  
وتزحف فى لهيب القيظ..  
تسأل عن عنوية نهرها  
والنهر سممه المغول  
- وعيونها تحبو من الإعياء، تسقى جذور الشوك  
تنتظر المصير المر.. يطحنها الذبول<sup>(٨٥)</sup>.

الموت الجبرى والاعتصاب/القهر يبدو من خلال مفردتين دالتين (دم)، و(المنزوع) ومن خلالهما ترقب الذات واقعها وترصد تحولات العالم الدموى الذى يجتاح كل معطيات الواقع. وحركية الموت تمتد للأمام، تمارس فاعليتها التدميرية، ويقوم الزمن بدوره حين يتكئ الشاعر فى بقية القصيدة على الفعل المضارع بوصفه فعلا حركياً يمتد وتنامى: تسوق - تترك - تشد - تضيع - تلقى - تخرج - ترحف - تسأل - تخبو - تستقى - تنتظر. وتتضح نتائج الانهيار الاقتصادى والجذب والجفاف فى الانتظار السلبي الذى يؤكد رؤية الذات للعالم من خلال البنية الدالة: (تنتظر المصير المر.. يطعنها الذبول).

ومن ملامح الانهيار الاقتصادى اعترافه بالفقر والجوع الذى تنتسب إليه الذات، وتعانى من نتائجه، ولذا تتمسك بالدعوة للثورة على الواقع المتردى، وتقود التحريض والانقلاب ضد الأغنياء الذين يصوغون وجهاً آخر مغايراً لواقع الفقراء، يصوغون من عرق الأجراء الفقراء نقود زنا ولآلى تاج وأقراط عاج. إن أمل دنقل ينحاز إلى الفقراء، لأنه واحد منهم يملك قوت يومه بالكاد، ولهذا «كانت هذه الثورة ترتبط بهدف أصيل وغاية إنسانية عامة هى تحقيق العدالة والحرية وسيادة العقل، فلا بد أن تكون الثورة من أجل المأسورين والمقهورين والجياع فى الأرض»<sup>(٨٦)</sup>.

يكشف أمل هذا الواقع المتردى وصراع الطبقات فى قصيدته «سفر التكوين» الإصحاح الرابع:

إننى أول الفقراء الذين يعيشون مغتربين  
يموتون محتسبين لدى العزاء  
قلت: فلتكن الأرض لى.. ولهم!  
(وأنا بينهم)  
حين أخلع عنى ثياب السماء  
فأنا أتقدس - فى صرخة الجوع - فوق الفراش الخشن<sup>(٨٧)</sup>.

وفى القصيدة نفسها يواصل أمل صرخة الذات فى ظل التدهور  
والتردى الذى يعانىه الواقع، لترى الحصار يفرض نفسه، ويمارس  
قسوته عليها، فلا يتراءى لها إلا الموت والانهيأ، فتتوحد بآليات  
الموت، تعانى الغياب:

حدقت فى الصخر، وفى ينبوع  
رأيت وجهى فى سمات الجوع!  
حدقت فى جبينى المقلوب  
رأيتنى: الصليب والمصلوب  
صرخت - كنت خارجاً من رحم الهناءة  
صرخت: أطلب البراءة  
كينونتى: مشنقتى  
وحبلى السرى:  
حبلها  
المقطوع<sup>(٨٨)</sup>.

يستخدم الشاعر أفعالا دالة تكشف عمق الرؤية والتحقق من

خلال ممارسة الواقع (حدقت) التي تشير إلى التأمل والانشغال معتمداً على تكرارها الذي يؤكد امتلاء الذات، لتكون النتيجة الاكتشاف: (رأيتي). ويأتي الموقف الذي يعتمد على الاحتجاج والرفض من خلال بنية الفعل (صرخت) التي يعتمد الشاعر في إعلانها على التكرار لتكون وسيلته الوحيدة بوصفه قائداً تنويرياً يملك الصراخ/الكلمة في مواجهة الواقع.